مجلة دراسات في اللّغة العربية و آدابها، فصلية محكمة، العدد٣، خريف ١٣٨٩/٢٠١٠

آليات النص وفاعليات ما قبل التناص

الدكتور وفيق سليطين*

الملخص

يعكف البحث المزمع إنجازه على دراسة نصّ متخيّر من شعر "ابن مليك الحموي" في العصر المملوكي، ويهدف إلى الوقوف على الآليات النصيّة العاملة فيه، وتحديد أنواعها، ودرجات تفعليها في بنائه وإنتاج دلالاته الممكنة.

ومن ثم يعرض لأشكال التوظيف والاستخدام التي يتوسل بها النص، من خلال اشتباكه بالنصوص الأخرى التي يستحضرها ويحيل عليها. ويخلص البحث إلى تبيان أهمية هذه الممارسة ومناقشة أشكال التوظيف المعتمدة فيها بين حضور المرجع ومفهوم التناص.

كلمات مفتاحية: آليات النصّ، فاعليات، ما قبل التناص.

المقدمة

لم يعد العرض التاريخي النظري كافياً لإحراز معرفة بالنصوص الأدبية، وطرائق تشكّلها، وآليات تشغيلها؛ لذلك بات من الضروري تجاوز ذلك إلى اختبار النصوص بالتحليل الرامي إلى استكناه دواخلها وإخضاعها إلى الفحص الدقيق. ويأتي ذلك استكمالاً للدرس النظري وتعميقاً له. وفي هذا المنحى لا تبقى النصوص المختلفة مجرد وثائق لغوية للعرض والاستشهاد، أو لتدعيم فكرة وإبراز مقصد أو آخر، بل تغدو هي نفسها محلاً لتحليل علمي معمّق، يهدف إلى الكشف عن أنظمتها الذاتية، وأساليب انتظامها وإنتاجيتها التي تردّ بالضرورة على الدرس النظري التاريخي، وتتكامل معه على أساس علمي ومنهجي يمنحه ثقلاً نوعياً في ميدان الدراسات الإنسانية.

أهمية البحث والهدف منه: تتأتى أهمية البحث من عكوفه على النص لإنتاج معرفة به، من خلال الكشف عن الآليات العامة التي تحكم بناءه، وتؤمن اشتغاله، وتعزّز إنتاجيته. وإذْ يتولّى العمل إبراز هذه الآليات، فإنه ينصرف، في الوقت نفسه، إلى الحفر في الطبقات النصيّة العميقة، للوقوف على أشكال التوظيف والاستخدام التي يتوسل بها النصّ، وينتج نفسه من خلالها.

---

* أستاذ مشارك في قسم اللغة العربية و آدابها، جامعة تشرين، اللاذقية، سورية.

تاريخ الوصول: ٨٩/٦/٥ تاريخ القبول: ٨٩/٨/٣٠

وإذا كان من شأن ذلك أن يضيء علاقة النص بتراثه الخاص، فإنه يسهم، أيضاً، في تحديد استراتيجية النص الخاصة بتفعيل خطابه، من خلال اشتباكه بالنصوص التراثية، التي ينهض عليها، ويتقوّى بها، عبر استجابته للنسق المؤسِّس، ومحاكاته له، وامتثاله لسلطته المرجعية. وفي ذلك ما يشير، على نحو ما، إلى المدوَّنة التي ينتسب إليها النص، ويعمل في إطارها.

منهج البحث: يقوم البحث على منهج التحليل اللغوي والأسلوبي، فينطلق من رصد المكونات الداخلية وسبل ترابطها، ليذهب، من ثَمَّ، إلى فحص علاقاتها وتمييز أشكال انتظامها. وهنا يأتي المسعى الأسلوبي الخاص بالكشف عن طرائق البناء والتشغيل، القائمة على التوالي والتكرار من جهة، وعلى التوسل بأساليب خاصة بالنصوص التراثية التي يستقدمها النص المملوكي لأغراض محدّدة، تتصل بدعمه وإطلاق فاعليته، بنيةً وخطاباً، في آن معاً.

يتصدّى هذا البحث لأنموذج من شعر العصر المملوكي، فيعمل على تحليله، للكشف عن الآليات التي يقوم عليها بنيانه من جهة، والتي يتوسل بها لتفعيل خطابه من جهة أخرى. ولا شك في أن مواجهة النصوص الأدبية تردّ حصيلة الجهد التطبيقي على النظرية، في الوقت الذي تتخذ منها منطلقاً تستهدي به في عملها على معاينة النصوص والحفر فيها، بقصد استجلاء الأنساق التي تنطوي عليها، فتتماسك على أساسها، وتغدو موجَّهة بها من الداخل.

ربما كانت أهمية هذا التوجّه تتأتى، أولاً، من الانصراف عن التناول المحيطي للأدب، وعن الكلام على نصوصه من خارجها، للتعمّق في سبر المكوّنات النصيّة، وإضاءة سبل ترابطها، وإبراز آليات اشتغالها وإفضائها الدلالي على نحو أو آخر. وهذا ما يتغيّاه الاختبار المقدَّم هنا لقول " ابن مليك الحموي"[١] في ذمّ أهل زمانه[٢]:

أذمُّ إلى الزمانِ أُهيل سوءٍ يرون الغيَّ من سبل الرشادِ
لئامٌ يسلقونكَ حين تعشو لنارهِمُ بألسنةٍ حِدادِ

١ هو علي بن محمد بن علي المعروف بابن مليك، ولد في حماة سنة (٨٤٠ هـ)، وتوفر على تحصيل علوم عصره في اللغة والأدب، توفي سنة (٩١٧ هـ)

ينظر في ترجمته: نجم الدين الغزي *الكواكب السائرة بأعيان المئة العاشرة* ج١ ص٣٦١- شهاب الدين الخفاجي *ريحانة الألبا وزهرة الحياة الدنيا* ج١ ص١٨٨.

٢ ابن مليك الحموي *الديوان* ص ٢٠٨، ٢٠٩ نقلاً عن عمر موسى باشا الأدب العربي في العصر المملوكي والعصر العثماني ج١ ص٣٢٢.

تراهمْ مِنْ أشدِّ الناس حرصاً على الشيء الملفَّف بالنجادِ
فيدخرونَهُ قوتاً وزاداً إلى يوم القيامة والتنادي
يبيتُ نزيلهُمْ غرثانَ يطوي ومضطجعاً على شوك القتاد
يرون الجودَ منقصةً وذلاً وأن البخلَ من شيمِ الجياد
فأكرمهُمْ وأنداهُمْ بغاثٌ جمادٌ في جمادٍ في جمادِ.

١"ـــ من الملاحظ أن بناء هذه الأبيات يقوم، أساساً، على الجملة الافتتاحية؛ جملة الذم الخبريـــة، التي يمكن أن نشير إليها بـــ "الجملة المركزية" أو "الجملة النواة"، من حيث إنها تشكّل حجر الزاوية في هذا المبنى. أما بقية الجمل فتتوالى متتابعةً في صدورها عن الجملة النواة وارتباطها بها؛ فهي تلزم عنـــها، وتنشدّ إليها بقرينة منطقية.

تنتظم الأبيات السابقة، إذاً، من حيث هي جملة واحدة، تتفرّع وتتطاول، دون أن تكون متناميـــة شعرياً. ومعنى ذلك أن الجملة النواة يجري تمطيطها، وتكرار دوائرها، على نحو أو آخـــر، في الأبيـــات اللاحقة. ويمكننا أن نميّز ضروباً من التكرار المشار إليه، على النحو الآتي:

أ - التكرار اللفظي

يتبدّى هذا الضرب من التكرار، على نحو واضح، في البيت الأخير، الذي يتكرر فيه لفظ " الجماد " ثلاث مرات. وإذا كان في طبقات الجماد المضاعفة نفي لكل معنى إنساني، فإن ذلك يتجاوب مـــع صيغة التضعيف في لفظ " الملفّف " في البيت الثالث، من حيث إن التضعيف ضـــرب مـــن التكـــرار اللفظي. وهذا الاقتران بين الجانبين يتحدّد باعتماد التكثير اللفظي للدال المفرد. ويأتي ذلك على شكل طبقات متراصّة تُغلِّفُ واحدها الأخرى وتكرّرها، فيعاد إنتاج اللفظ نفسه، وتتراكم المكوّنات الصوتية نفسها، ويجري الإلحاح على تأكيدها، بالمعاودة، وعلى قرع الأسماع بها مرةً بعد أخرى.

ب- التكرار المعنوي

وهو ما يتأتّى من تكرار معنى جملة الذمّ في دوائر الأبيات المتفرّعة منها. فكلُّ ما يأتي بعد هذه النواة النصيّة يقدّم، من نفسه، تأكيداً لها، وبرهاناً عليها. وبناء على ذلك يتواتر معنى الذم ويتثبت مع التقدّم الخطّي في القراءة، فيكون تغاير الدوال، من الجهة الأخرى، اجتماعاً على وحدة المـــدلول، وتعزيـــزاً للمعنى المركزي الذي تفضي به الجملة النواة. وبموجب ذلك تتراكم الحمولة المعنوية، وتحتشد الرقعـــة النصيّة بصور التنويع اللفظي المنعقد عليها، فتتوالى الأوصاف الراشحة بمعنى الذم التي تردّ على تأكيـــد

مركز القول، وتشكل جوهر الإقناع به. وعلى هذا الوفاق يكون تتابع الدوال انبعاثاً متكـــرراً لفعـــل "الذم"، ونطقاً متجدداً به، على نحو ما يظهر في الخطاطة التوضيحية الآتية:

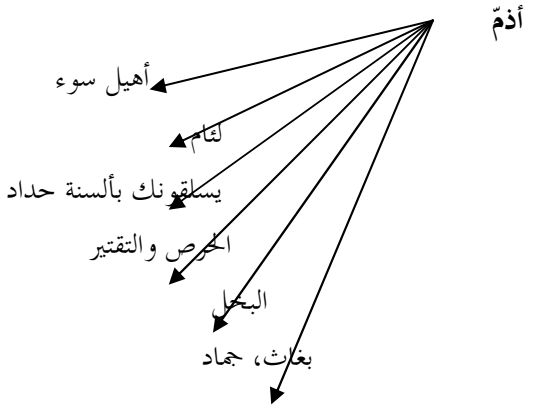

تنجلي هذه المحاور الصادرة عن المركز من حيث هي تجليات معنوية، تستدعي طيفاً واسعاً لفعل " الذم "، يكرره كلٌّ منها، على نحو أو آخر، في الداوئر القولية، بحركة راجعة تقتضي ترسيخه وتعميـــق أثره. وفي ذلك ما يشدّ اللحمة النصية، بعضها إلى بعض، ويبدي عن خاصـــية التماســـك وانســـجام الخطاب.

ج- تكرار الأبنية النحوية

وهذا ضرب آخر من التكرار، يخصُّ منطق العبارة ونظام التركيب. ومعنى ذلك أنه يركّـــز علـــى مفهوم " العلاقة "، الذي يتجاوز الوحدات المفردة، في استقلالها اللفظي والمعنوي، إلى العناية بطريقـــة ضمّ بعضها إلى بعض، والتأليف فيما بينها على نحو مخصوص. وعلى أساسٍ من ذلـــك يـــتمُّ تثبيـــت الوصف، ومضاعفة الأثر، وتوكيد الرسالة.

نلاحظ، في هذا المستوى، تكرار البناء النحوي، الذي يأتي برهاناً على جملة الذمّ، وحمـــلاً علـــى الإقناع بها، كما هو المثال النصي: " **يرون الغيَّ من سبل الرشاد** "، وهو المثال الذي يتردّد في عـــدد من الأبيات، محتفظاً بصورته الثابتة على هذا النحو، الذي يستغرق البيت السادس خاصة:

يرون الجودَ منقصةً وذلاً وأن البخلَ من شيم الجيادِ

ومن البيّن أننا نستطيع القيام بإعادة تنضيد مكوناته التركيبية، التي يتوالى نظامها على النحو الآتي:

١ - يرون الجود منقصةً.

٢ - يرون الجود ذلاً.

٣ - يرون البخلَ من شيم الجياد.

إنّ إعادة تفصيل مكونات البيت، على هذا الغرار، يسوّغها حرف العطف في شطري البيت كليهما. فهو ينتصب علامة دالة تقتضي إعادة التركيب نفسه، والاحتفاظ بنظام البناء الموحّد مع كل ظهور جديد له. وإذا ما تأملنا في شكل انتظام هذا البناء فسنجده مكوَّناً، على الترتيب، من:

الفعل + الفاعل + المفعول به الأول + المفعول به الثاني، أو ما يقوم مقامه، ويتنزّل منزلته، كما هو الحال مع شبه الجملة. وهو ما وقفنا على مثاله، الذي يشكل سابقة لهذا الحضور المتكرر، في الشطر الثاني من البيت الأول: " يرون الغيَّ من سبل الرشاد "، وكذلك في الشطر الأول من البيت الثالث: " تراهم من أشدّ الناس حرصاً ".

نخلص من ذلك إلى القول: إن صور هذا البناء النحوي الثابت يتجاوب بعضها مع بعض، ويردّ بعضها على بعض، في تدعيم الترابط التأليفي، وشدّ أواصر النسيج النصيّ، وكذلك في تعزيز فحوى جملة الذمّ الافتتاحية، وضمان الاستجابة لها، بفعل تراكم الأثر، الذي تفضي به وترسخه آلية التكرار المشار إليها، ولا سيما أن هذا البناء يعتمد، لتحقيق أثره المرتجى، أسلوباً خاصاً في التركيب، يقوم على قلب منطق العلاقة الطبيعية بين الأشياء أو العناصر والأطراف، وهو ما سنشير إليه، لاحقاً، في موضع آخر من هذا التحليل.

٢"- من النص الحاضر إلى النصوص الغائبة: "أشكال التوظيف والاستخدام"

ينبني نصّ الشاعر المملوكي، الحاضر أمامنا، على ضرب أو آخر من ضروب استقدام نصوص التراث الغائبة وتوظيفها فيه. ومن هذا المنطلق يمكن أن نذهب إلى تمييز طرائق اشتباكه بتلك النصوص، اعتماداً على منطق المحاكاة، وفاعليات الاقتطاع والتضمين والاقتباس، التي نقف على اختلاف نسب حضورها فيه، وعلى تفاوت قوى تأثيرها في إنشائه من جهة، وفي تفعيل خطابه من جهة أخرى.

وقبل الخوض في هذا المنحى، سنعمد إلى مواجهة قول " ابن مليك "، الذي نتناوله الآن بالدرس والتحليل، بأبيات " المتنبي " التي يقول فيها[١]:

أذمُّ إلى هذا الزمان أُهيلَهُ فأعلمهُمْ فَدْمٌ وأَحزمُهُمْ وَغْدُ

وأكرمهُمْ كلبٌ وأبصرُهُمْ عَمٍ وأسهدُهُمْ فَهْدٌ وأَشْجعُهُمْ قِرْدُ

ومِنْ نكدِ الدنيا على الحرّ أن يرى عدوّاً له ما مِنْ صداقته بدُّ.

١ المتنبي، *الديوان*، ج١، ص٣٤٣.

بمقابلة الشاهدين أحدهما بالآخر، نلاحظ أن نصّ الشاعر المملوكي يحيل على نصّ المتنبي السابق، ويشتبك به في أكثر من موضع، بحيث يبدو استعادة له، واقتطاعاً منه، وتضميناً لبعض أجزائه، كما في شطر البيت الأول الذي يبلغ فيه التشاكل حدّ المطابقة بين الجانبين:

أ - (ابن مليك): أذمّ إلى الزمان أهيل سوءٍ.

ب- (المتنبي): أذمّ إلى هذا الزمان أهيلَهُ.

إذا كان الأول (أ) يجري على مثال الثاني (ب)، لفظاً وتركيباً، على النحو الذي يكون فيه قول الشاعر المملوكي إعادة تحيين لقول المتنبي، وابتعاثاً جديداً له في زمن آخر، هو زمن الحاضر المملوكي، الذي يمثله قول " ابن مليك الحموي"، فإن هناك ضرباً آخر من علاقات التشابك والتقاطع النصّي بينهما يظهر في آلية البناء، أو في نظام التركيب، الذي يشدّ البيت الأخير من الشاهد المسوق لـ " ابن مليك " إلى البيت الثاني من قول " المتنبي" الذي نواجهه به:

ج- " ابن مليك ": فأكرمهم وأنداهم بغاث....

د - " المتنبي ": وأكرمهم كلب وأبصرهم عمٍ ...

إن آلية البناء - كما هو واضح في المثالين- تقوم على استثمار العلاقة الطباقية التي تؤلف بين حدّي التقابل الضدّي. وإذا ما تجاوزنا الحضور المباشر لهذه العلاقة في مثل هذا الموضع، فإن بمقدورنا أن نلاحظ اعتمادها الوظيفي العام، الذي يَسِمُ الأنموذج المتخيَّر من الشعر المملوكي، ويؤسسه عليها. وهو ما سبق أن أشرنا إليه بـ "آلية قلب منطق العلاقة الطبيعية"، هذا القلب الذي يستمدّه الشاعر المملوكي من لدن "المتنبي"، ويوسّع دائرة توظيفه في مختلف الأبيات التي توقفنا عندها من هذا الأنموذج المتخذ مادة للتحليل، بدليل ما تقدّم التوجيه إليه سابقاً من قوله:

"يرون الغيَّ رشاداً"، "يرون الجودّ منقصةً "...إلخ.

فضلاً عن المثال الذي عرضنا له من شعر " المتنبي "، يتبيّن لنا، بشيء من إمعان النظر، أن نصّ " ابن مليك " يحيل، ضمناً، على نماذج مختلفة من تراث الشعر العربي، فيعقد معها نسبةً، ويجعل بينه وبينها أواصرَ تقوي من اشتباكه بها وصدوره عنها، على نحو ما يكشف عنه ازدواج الإحالة في علاقات اللفظ والمعنى. ونقدّم بين يدي ذلك، على سبيل المثال، ضروب التعالق والالتحام الآتية:

أ - (ابن مليك): لئام يسلقونك حين تعشو لنارهم بألسنة حِداد

ب- (الحطيئة): متى تأته تعشو إلى ضوء ناره تجدْ خيرَ نارٍ عندها خيرُ موقدِ[١]

١ الحطيئة *الديوان* ص٥١.

أ- "ابن مليك": يبيتُ نزيلهم غرثان يطوي ومضطجعاً على شوك القتاد
ب- "الأعشى": تبيتون في المشتى ملاءً بطونكم وجاراتكم غرثى يبتْنَ خمائصا [١]
أ - "ابن مليك": يبيت نزيلهم غرثان يطوي

.....

ب - (عنترة): ولقد أبيت على الطوى وأظله حتى أنال به كريم المأكل [٢]

لا شك في أن هذه الصور المقدَّمة هنا، تكشف عن التحام نص الشاعر المملوكي بمدونة الشعر العربي القديم، وانفراعه منها، وإحالته عليها، في علاقات النظم، وسبل التعبير وتأسيس المعنى، على الرغم مما تسفر عنه كلٌّ منها من انحراف طريقة التشكيل، وتفاوت نسب المطابقة والاختلاف في درجات انزياح القول عن أصوله المفترضة التي تقدّم، من نفسها، شاهداً على السنن والمعيار.

• • •

يتعمّق طابع امتياح الشاعر المملوكي من التراث، من خلال شبك نصّه بالنص المقدّس، وهو ما يتبدّى في استقدام بعض آي القرآن الكريم، وبثّها في نسيج النصّ الجديد، والتوسّل بها، بنائياً وأسلوبياً، على نحو ما نلاحظ في البيت الثاني:

لئام يسلقونك حين تعشو لنارهم بألسنة حِداد

ذلك أن هذا البيت يحفر المجرى النصّي، ويفعّل منحاه، ويعضُد توجهه، ويؤسس قرانه، بشدّ علاقاته الداخلية، بعضها إلى بعض، من خلال توظيف الآية القرآنية: "فإذا ذهب الخوف سلقوكم بألسنة حداد"[٣]. هذا الضرب من التوظيف، الذي يخصُّ العلاقة بالنصّ المقدس، هو ما يشير إليه مصطلح "الاقتباس" في البلاغة العربية، مقابلاً لمصطلح "التضمين" الذي يخصُّ علاقة الشعر بالشعر. و في مثل هذا البيت نقع على ضربي التوظيف المشار إليهما، أو لنقُلْ إنّ خاصيته التركيبية تقوم على ازدواج الإحالة، من خلال استحضار لغة الشعر العربي القديم وسننه التعبيري الموروث في صورة "مَنْ يعشو إلى النار"، ولغة البيان القرآني ذات الكثافة الإيحائية المركّزة في نظام العبارة القائم على اعتماد فعل "السلق" وآلته، وإدراجهما في هذا المنحى القولي، الذي تتضافر فيه مكونات السياق، وتعمل، معاً، على إنتاج طاقته، وإطلاق شحنته، ومضاعفة أثره.

---

١ الأعشى الكبير *الديوان* ص١٨٥.

٢ عنترة الديوان ص٢٤٩.

٣ القرآن الكريم سورة الأحزاب الآية ١٩.

ومن الواضح أن ذلك لا يتأتى من المعاني الثابتة، أو من الدلالة الأحادية للمفردات المعزولة، أو المقيَّدة، التي تنصرف معها عبارة "سلقوكم بألسنة حداد" إلى معنى الإيذاء بالكلام الجارح والصوت الزاجر، وإنما يتحصل ذلك من علاقة النظم، ومن نشاط السياق، الذي يقرن فاعلية الاختيار بفاعلية التأليف، فيكون مدار التفاعل والإنتاجية متوقفاً على اختيار الفعل "سلق" دون غيره، وكذلك شأن المفردات الأخرى: "تعشو" و "النار" و "ألسنة حداد"، وتقييد الفعل يسلقونك بالظرف "حين" إلخ، ومن ثمَّ تأتي علاقات التأليف لعقد الصلة الخاصة بين هذه الآحاد المختارة من السلسلة الكلامية، بحيث يكون محصولها متأتياً من علاقات النظم، وطرائق النسج، التي يتفاعل فيها محورا الاختيار والتركيب.

خلاصة ما سبق إيضاحه أن نصّ الشاعر المملوكي يستوي بناؤه على ركيزتين أساسيتين هما: التراث الشعري العربي، ممثلاً بأعلامه الكبار ونصوصه الباذخة، والنص القرآني المقدّس، الذي يعدّ مصدراً أعلى للبلاغة وسحر البيان. ومن هذين المصدرين يمتح نص الشاعر المملوكي، ويحرص على إظهار انتسابه إليهما، وتقديم نفسه في إطار من العلاقة البيّنة بهما؛ لأن ذلك أدعى إلى إنفاذ أثره في المتلقي؛ إذ يردّ على نفسه من عظمة هذين المصدرين من خلال اشتباكه بهما، فيحوز، بحكم العلاقة، أثراً من النصّ المقدّس من جهة، ويصل نفسه بمنابع الشعر العربي القديم، التي شكّلتْ الوجدان الجمعي، واضطلعت بتأسيس ذاكرة الثقافة العربية، وغدت مرجعها الأعلى الذي هو محلّ العظمة والإجلال من جهة أخرى.

٣"- نظام الإحالة: "بين سلطة المرجع ومقولة التناص"

رأينا أن نصّ الشاعر المملوكي، كما هو في هذا المثال، يحيل إحالة مباشرة على نصوص أخرى؛ ذلك أن الأجزاء، أو العبارات المأخوذة منها، وحدات بنائية ودلالية، تظهر فيه، بصورها الثابتة نسبياً، وتبدو معالمَ بارزة، أو بقعاً نافرة في نسيجه. ويعني ذلك أنها لا تتحوّل فيه، ولا تبارح نحوها المضروب في الصياغات السابقة، فتبقى حضوراً سافراً لها في النصّ الجديد، أو أكثر مما تتحوّل في كيانه، أو تذوب في محلوله، وتندمج، عمقياً، فيه.

وإذا كان من شأن هذا الاستحضار لنصوص التراث، عبر الاقتطاع من لغتها وشواهدها، أن يقوّي سلطة المرجع بمجاراته والاحتكام إليه، أو بإخضاع النص الجديد له من جهة، وإخضاع المتلقي للسنن الثقافي المشترك، الذي يحمله النص القديم ويصدر عنه من جهة أخرى، فإن في ذلك كلّه ما يمدُّ النصّ الحاضر الجديد؛ أي نصّ الشاعر المملوكي هذا بأسباب القوة والتأثير، المتأتية من لوذانه بسلطة الماضي،

ومن خضوعه للنسق المؤسِّس وقيمه المشتركة التي يوجّه إليها، من خلال الاستمداد من مصادرها، أو الاشتباك بها والتقاطع معها.

من الملاحظ، إذاً، أن توظيف عبارات النصوص الأخرى، لا يحملها على الانصهار في تشكّل النص الجديد، ولا يقوم بتذويبها وتحوير سياقاتها القديمة. ولذلك يبقى هذا الشكل من التوظيف دون مستوى التناص، الذي يفترض أنموذجاً من العلاقة النصيّة يضطلع فيها النص الحاضر بامتصاص النصوص الغائبة وتحويلها فيه، بحيث لم تعد هي ما كانت عليه من قبل، بحكم التفاعل الجديد، وبقوة الحوار التناصّي المحدث لها بالتشرّب والهضم والتعديل. وبهذه الفاعلية تتأسس، في عمق النسيج النصّي، ضروب الاختلاف بين النصّ المتناصّ والنصّ الغائب. وهي اختلافات لفظية ومعنوية وسياقية، تمنع من إنشاء المطابقة بين الجانبين، خلافاً لما نجده هنا في عمليات التضمين والاقتباس، التي تحفظ طبيعة النصّ المرجعي، وتقوم بإدراج جزء أو آخر منه على صورته المتعيّنة في النص المستدعى، أو المعاد تحيينه من جديد.

على أساس مما سبق، يتبدّى أن فاعلية التوظيف، في النص المملوكي المتناول هنا، تقوم على الاستقدام، والمحاكاة، والتثبيت. وهي عمليات تنحو بالتشكّل النصّي الجديد نحو احتذاء الأنموذج السابق، وتُخضعه له، فتكفُّه عن بلوغ مستوى الحوار التناصّي، الذي يبلغ فيه التفاعل مستوى أعلى، ينهض على أفعال الهدم، والنقض، والامتصاص، والتحويل، وإعادة التشكّل النوعي في صور المغايرة. فالتناص هو توظيف عضوي، تصبح النصوص الغائبة معه جزءاً من السياق الجديد.

أما ضروب التوظيف ما قبل التناصّي، التي كشفنا عنها هنا، فهي التي تعلو، وتتكلم، وتخضع البنية النصية الجديدة لها - كما رأينا- وتشدّها إلى مطابقة سلطة المرجع، الذي تستدعيه، وتشكّل نفسها على وفق مقتضاه.

الخاتمة

يخلص البحث، باعتماد الإجراءات السابقة، إلى تبيّن بعض الخصائص والمقومات التي ينهض عليها مثال الشعر المملوكي المتخذ ههنا أنموذجاً للتحليل. ومن ذلك أنه يقف على تمييز علاقاته الداخلية، وأساليبه البنائية، وطرائق تفعيل خطابه. وذلك ما يتبدّى عبر تدعيم صور الترابط التأليفي التي تشفّ عن التماسك والانسجام، وما يفضيان إليه من مراكمة الأثر وضمان الاستجابة إليه من جهة، وعبر شبك النص بالنصوص التراثية، وإحلال بعض منها في نسيجه الخاص، على النحو الذي يوحي

بالانتساب إليها، أو بنقل مركز الثقل النصيّ إلى النصّ المملوكي الحاضر. لكن التحليل يكشف، عمقياً، عن بقاء أشكال التوظيف المتّبعة دون مستوى الحوار التناصيّ، مما يعني خضوع النصّ المملوكي للبنية النصيّة القديمة، وامتثاله لسلطتها المرجعية التي تهيمن عليه، وتشدّه إلى دائرتها الخاصة، دون أن يبلغها، ودون أن يقوى على إحداث التحوّل بها، أو القطع معها.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم

١- الأعشى الكبير (ميمون بن قيس) *الديوان* شرح وتعليق محمد محمد حسين ط٢ بيروت لبنان: مؤسسة الرسالة ١٩٦٨م.

٢- الحطيئة *الديوان* من رواية ابن حبيب عن ابن الأعرابي وأبي عمرو الشيباني شرح أبي سعيد السكري بيروت لبنان: دار صادر د. ت.

٣- الحموي ابن مليك *الديوان* نقلاً عن عمر موسى باشا الأدب العربي في العصر المملوكي والعصر العثماني دمشق: مطبوعات جامعة دمشق المطبعة الجديدة ١٩٨٥-١٩٨٦م.

٤- الخفاجي شهاب الدين *ريحانة الألبّا وزهرة الحياة الدنيا* تحقيق: عبد الفتاح محمد الحلو مطبعة عيسى البابي الحلبي ١٩٦٧م.

٥- عنترة *الديوان* تحقيق ودراسة محمد سعيد مولوي ط٣ الرياض السعودية: دار عالم الكتب ١٩٩٦م.

٦- الغزي نجم الدين *الكواكب السائرة بأعيان المئة العاشرة* تحقيق: جبرائيل سليمان جبور ط٢ بيروت لبنان: دار الآفاق الجديدة ١٩٧٩.

٧- المتنبي *الديوان* بشرح العكبري ضبط نصوصه وأعد فهارسه وقدم له عمر فاروق الطباع بيروت لبنان: دار الأرقم ١٩٩٧م.